صفحة انسانية جليلة

من تاريخ الشرق العربى

فى طرابلس الغرب

مرت الآن عشرون سنة تقريبا ، منذ أن قامت الحرب بين تركيا وايطاليا ، وفى النهاية أصبحت طرابلس — بعد أن ظلت تحت الحكم الاسلامى ثلاثة عشر قرناً — ولاية ايطالية .

فى خلال هذه العشرين سنة شغلت ايطاليا بحروب مستمرة مع الطرابلسيين الذين قاوموا استعمار بلادهم مقاومة الأبطال . وما هؤلاء الأبطال إلا احفاد السيد السنوسى ، ولا يجهل أحد مكانة هذا المجاهد فى أنحاء العالم الاسلامى . اتخذ السيد واحة الكفرة كمعسكر حربى له ، وامتد تأثير السنوسيين فى الشمال الغربى من أفريقيا ، وعلى الساحل الشمالى من مصر ، بل وعلى الأعراب الذين يسكنون وادى النيل .

أما واحة الكفرة ، فهى تلك الواحة المستترة فى الصحراء ، وهى تلك التى اكتشفها لاول مرة الرحالة المصرى أحمد حسنين بك . وقد أحيطت بها قبل هذه الزيارة قصص خرافية قيل فيها : إنها مدينة كبيرة مسقفة بالذهب ، وأحجارها من الحجارة الكريمة . ولكن باكتشافها ظهر أنها لا تعدو أى واحة أخرى فى هذه الصحراء الكبرى ، وليس فيها من بناء هام إلا مسجد السنوسى . وتقع هذه الواحة جنوب البحر الابيض المتوسط بنحو ٥٠٠ ميل وغرب وادى النيل بنحو ٦٥٠ ميل . وبهذه العزلة الساحقة صارت بعيدة عن العالم ، وعاش سكانها قروناً طويلة منعزلين تماماً ، لايدرون مايحدث فى العالم الخارجى حيث تمدهم الواحة بكل مايحتاجون اليه لمعيشتهم . وقد كان يوجد قديما طريق تجارى للقوافل بين أفريقيا الوسطى وبين مصر يمر بهذه الواحة ، الا أن النقل البحرى قضى على هذا الطريق كما قضى على غيره من الطرق ، وبذلك فقد سكان هذه الواحة ، فن النقل فى الصحراء ، الذى كانوا يمتازون به ، وزال كل أثر لهذا الطريق الموصل الى الواحات المصرية ثم الى مصر . ونتج من ذلك أن أصبح لا يوجد رجل فى واحة الكفرة يعرف أثر هذا الطريق الا سماعا .

علم عرب الكفرة بتقدم الايطاليين لمحاربتهم والقضاء عليهم ، فجهزوا أنفسهم للدفاع ولكنهم فوجئوا بما لم يعلموا عنه شيئاً من المدنية الخارجية ، وهو إلقاء القنابل عليهم من الطيارات ، وقدكان ذلك فى ١٧ يناير الماضى . وبعد ثلاثة أيام احتلت قوة الابل الايطالية المتقدمة التلال القريبة من الواحة ، وبعد تبادل الطلقات النارية تظاهرت القوة بالفرار والتقهقر حتى هجم العرب عليهم من خلف الصخور التى كانوا يحتمون بها ، فأصلاهم الايطاليون نيراناً حامية من مدافعهم السريعة الطلقات ، حتى فنى الكثير منهم . هذه هى الموقعة التى قصها الذين نجوا منها ، ولاشك أن هذه المحنة التى لقيها العرب جعلتهم يفضلون هجر واحتهم ويلجأون إما الى مصر أو إلى السودان مخترقين الصحراء ، فقضوا الليلة الاولى التى تلت هذه الموقعة فى حزم أمتعتهم على ظهور الابل ، وحمل كمية من الماء تلزم لنحو ١٢ يوماً على حساب التقدير الذى أعطاه أكبر السكان سناً ، وهى المدة اللازمة لوصولهم إلى الداخلة أو الفرافرة حيث الماء والطعام متوفران . وبدأ نحو خمسمائة شخص من الأقوياء السير فى طريق القوافل القديم الذى يبلغ طوله نحو ٤٠٠ ميل الى الواحة الداخلة : وبتقديرهم لليوم ٥٣ ميلا سيراً ، يكون محتملا أن يقطعوا رحلتهم فى ١٢ يوماً . لكن هذه القافلة التعسة ضلت طريقها إذ فقدت الأثر بعد ثلاثة أيام ، ولم تكن إبلهم صالحة للسير مدة طويلة لحملها الثقيل من النساء والأطفال والامتعة والماء . كافحت القافلة عدة أيام فى صحراء جافة مخيفة لم يكن ينمو فيها حتى حشائش الصحراء ، أو يظهر أى مخلوق حى ، وكان الحر شديداً نهاراً ، والبرد قارصا ليلا : وكلما استمر السير أخذت الابل تضعف حتى اضطروا الى تخفيف أحمالها بالاستغناء عن الاغطية وكثير من الزاد .

ومرت الايام ، الواحد تلو الآخر ، ولم يكن يوجد أى أثر للطريق القديم أو أى أثر حديث للأقدام يهتدون به ، ولكن بفراستهم العربية استمروا يتقدمون نحو الشمال الشرقى حيث يعرفون بوجود الواحات المصرية . وفى نحو اليوم العاشر حين قرب الماء من النفاذ عثروا على آثار السيارات التى استعملت فى رحلة استكشافية بواسطة الامير كمال الدين حسين سنة ١٩٢٣ ، حين حاول الوصول إلى الكفرة من الواحة الداخلة. فأدخل ذلك السرور إلى قلوبهم وظنوا أنهم قربوا من واحة وماء . ولكن الاثار كانت تتجه نحو الشرق ولا تزال الداخلة تبعد عنهم نحو ٢٠٠ ميل . نفذ الماء تماماً حينئذ ، فذبحوا بعض إبلهم وشربوا الكمية القليلة التى كانت تختزنها الابل فى معداتها وبدأ الأطفال يسقطون من

الاعياء واضطر آباؤهم أن يتركوهم وراءهم فى الصحراء ، آملين حين وصولهم نجدة أن يرجعوا ويأخذوهم . بلغت القافلة منتهى الجهد والنصب فتفرقت جماعات عدة وظلت أقواها تواصل السير شرقاً بينما الآخرون تفرقوا أشتاتاً فى الصحراء .

وفى الواحة الداخلة لم يكن لموظفى مصلحة الحدود أى علم بما جرى فى الكفرة ، أو أن قافلة كبيرة من العرب تكاد تهلك فى الصحراء . وفى ٢٣ فبراير الماضى جاءت الأخبار من أحد أعراب الداخلة بأن جماعة كبيرة تكاد تموت ظمأ تسير متجهة نحو الواحة ، فلم يتوان عبد الرحمن أفندى الزهير الموظف بالواحة الداخلة ، فى انتهاز الفرصة وأخذ سيارتين كبيرتين من سيارات فورد مصطحباً معه طبيب الواحة الدكتور تقلا قلادة ، حاملا معه كمية من الماء

(عبد الرحمن الزهير افندى الموظف بالواحة الداخلة)

(الدكتور تلادة طبيب الواحة الداخلة)

والبرتقال . وبعد أن ساروا ستين ميلا قابلوا الجماعة الأولى — وهى الاقوى — وتبلغ نحو ٢٤ رجلا وامرأة وطفلا كانوا على وشك الموت ظمأ وجوعاً ، وكان من حسن الحظ وجود الطبيب قلادة حيث أمر باعطائهم الماء والطعام بكميات قليلة . وحين رجعت الجماعة الى الحياة أخبروا الموظفين بأن مئات من العرب يموتون جوعاً فى الصحراء ، فرجع بهذه الجماعة الى الواحة ثم أخذوا ثانياً سيارات كبيرة وجمالا محملة بالماء والزاد ، واتجهوا نحو الغرب لانقاذ الباقي . وبعد أن ساروا أميالا كثيرة قابلوا الجماعات الاخرى فكان بعضها على وشك الموت والبعض يزحف على الارض والبعض الآخر يحتفر قبره بيده . فعملت للاحياء منهم وسائل الانقاذ ، وكان أن نجا من الموت المحقق بواسطة شجاعة هذين الموظفين الباسلين حياة ٤٥٩ شخصاً . ونحن ننشر صورتيهما مقدرين لهما هذه الشجاعة الفائقة ، التى ستظل صفحة بيضاء فى تاريخ الانسانية . (مترجمة)